تأملات فى التشبيه القرآنى وسماته البلاغية

تأليف

الأستاذ الدكتور

صبّاح عبيد دراز

عميد كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

١٩٩٦م

قضايـــا

نقدم هذه الملحوظات بين يدى بحثنا مثيرة التأمل والتفكير دافعة إلي الجد فى البحث وصولا إلى شئ من الحقيقة الجمالية الكبرى للقرآن الكريم :

وأولى هذه الملحوظات

أن الله الخالق جعل البيت الحرام الذى بمكة أول بيت وضع للناس وفى مركزة الكرة الأرضية كما تعالم ذلك عند معاصرى الباحثين، وجعل أمة الإسلام والعرب أصلها ومادتها - أمة وسطا بكل ما توحى به الوسطية من معنى حسى كالتوسط بين الأمور، أو عقلى كالعدل والفضل والفضيلة، وهى وسط بين طرفين، بهذا كانت خير أمة أخرجت للناس، ومنح رسالة الإسلام صفات ذاتية أصبحت بها سنة من سنن الله، وناموساً خالداً لا تتعارض ولا تتصادم، بل تعين العقل والفطرة على التطهر والوصول إلى الحقيقة والسعادة، وكان القرآن مظهر هذه الرسالة وكلمة الله الأخيرة إلي البشرية حقاً وصدقاً فى سندها ومتنها وحفظها لفظاً وحرفاً وتواتراً إلى نهاية الزمان، مما جعله نسيج وحده بين الكتب على كل مستوى.

وقد اختار الله لغة العرب قالباً لكلماته القدسية فأظهر أسرارها، وأبرز جمالها، وألف بين محاسنها وخفى طاقاتها، واستثمر كل حسن فيها، ما كان لبشر أن يصل إليه، فأخرج جمالها في الحروف، وأجراسها إيقاعاً من عالم الروح والخلد حية متنوعة، وفى الكلمات منتقاة مختارة، كل لفظ كالكوكب الدرى إشعاعاً وجلالاً، وفى أساليب لها ظاهر باهر ومعنى قاهر بدلالات إلهية وفي تلاؤم

ووحدة ونظام وتصوير خاص جعله شمساً إليهة لا تفتأ ترسل شعاعاتها للإنسان[١].

وثانى هذه القضايا:

أن الله منح العرب قوة فى البيان، وجمالاً فى التعبير، وناط ذلك بأرواحهم وحياتهم وتقاليدهم، فكان لهم حياةً وراحةً وقدساً وغاية وفخراً وسلاحاً ومناط مدح وقدح وإعلاماً وإشهاراً، فكثر الشعر والشعراء والنقد والحكم والسجع والأمثال، وصار سمةً لهم كسمات الوجوه وفطرى الصفات كالكرم[٢]، فكان كالسحر سمة المصريين على عهد سيدنا موسى، والبراعة فى الطب سمة بنى إسرائيل لعهد سيدنا عيسي، فنزل القرآن معجزة دين ودليل صدق وحجة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في عالم البلاغة، وقد أخذ العرب به كما يؤخذ المقهور، وفتنوا بسحره، وسجدوا لجلاله، واستوى في ذلك المؤمن والمعاند[٣]، بل ربما كان عنادهم وتسميته سحراً وشعراً وكهانة أدل نفسياً على إيمانهم بقوة سلطانه؛ لانها أمور كانوا ينقادون لها ويخشعون حيال تأثيرها الغريب، بل نزلوا إلى مافيهم من طفولة وصبيانية وقالوا "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" وكان هذا شهادة من أرباب الفصاحة لقرآن الله المجيد .

---

(١) راجع : اللغة الشاعرة- العقاد ٤٦ والتصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ٣٦.

(٢) راجع : البلاغة تطور وتاريخ ١٠ والفن ومذاهبه في الشعر العربى ٣٠٩ والنثر العربى ٣٥ شوقي ضيف.

(٣) راجع : إعجاز القرآن - الباقلانى ٢٧ والرافعى ١٨٨، والتصوير الفنى ١٤.

وثالث هذه القضايا:

أن القرآن كلام الله القديم وصفته المقدسة، وتنزيله بلغة العرب لا يخرجه عن كونه صفةً ومعجزةً خارقةً، وما يقع تحت حواسنا من آيات الله من بشر وحيوان ونبات وجماد فيها من الأسرار والقوانين الإلهية ما يعرفه الإنسان وما خفي عنه، وكلما ازداد علماً أحس عجزاً «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير»؛ وذلك أن الله تعالى بصفاته القدسية أبدع وأحكم، وعقل البشر وهو مما أبدع وخلق أذل من أن يحيط بما صنع الجبار العظيم، وإن كان قد يلتقط خيطاً هنا أو هناك، ويلمح شعاعاً في هذا السبيل أو ذاك، وفي كل هو مفتون بالأثر الإلهي مشدود إليه مشغوف[1]، فالجمال البياني في القرآن جمال إلهي، لا يحيطون بشيء منه إلا بما شاء، بل العلوم والمعارف والأسرار الدقيقة، وإن تعجب فعجب أن يمضي على نزوله أربعة عشر قرناً حاول العلماء في البلاغة والتفسير والبيان وعلوم الإعجاز أن يقدموا شيئاً من أسرار جماله ودلائل إعجازه واختلفت الدروب والمناهج والنظريات ثم ما اصطنع كثير من علماء عصرنا من مناهج توائم التقدم البشري، وكل ذلك حلو طيب، لكن كثيراً منهم يؤمن بأنه لم يبلغ مبلغاً، وقليل منهم اعتقد أنه لن يدع للآخر شيئا.

---

(١) النبأ العظيم (محمد عبد الله دراز ٢/٦٥) راجع إعجاز القرآن للرافعي ٧٧ ومقدمة إعجاز الباقلاني - سيد صقر ٧٠ الإعجاز البياني- بنت الشاطئ ١١٦.

وعبر الزمان صار الجديد قديماً لا يستوعب تطلعات العصر، بل ولا حرفاً من الحقيقة الكبرى للجمال القرآنى، كما أشار النبى صلى الله عليه وسلم : القرآن جديد لا تنقضى عجائبه، وأشار القرآن نفسه في بعض التأويلات «ما فرطنا في الكتاب من شئ وفى أكثر من مناسبة» قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً.

الحقيقة الرابعة : أن الصورة البيانية بمفهومها البلاغى فى القرآن على كثرة ما سطر القدماء والمحدثون مازالت بكراً لم يرتده إلا القليل؛ ذلك أنهم تكلموا حولها وحول القرآن كثيراً، وقدموا من النصوص قليلاً، ولن تجد فيما وعت ذاكرة التاريخ إلا الإمام المعتزلى الزمخشرى، ثم إنه لم يعالج إلا جزءاً من البيان بطريقة جزئية، وإن كان له لمحات ولفتات ذوقية ونفسية بارعة[1]، أما المحدثون، فنعماهم، اتبع بعضهم الأسلوب الأدبى الجمالى الفضفاض في الكشف عن أسرار الإعجاز تقديماً للأثر والمعنى والظل والإيحاء، كالرافعى، ودراز، ومحمد عبده، وأمين الخولى، وسيد قطب، على أننى معجب بالمنهج الإحصائي العلمى التحليلى الذى أصبح طابع العصر فى العلوم والمعارف، ونقله داعيتاً الشيخ أمين الخولى إلى ميدان الدراسات القرآنية والأدبية والإنسانية بوجه عام، وطبقته بذكاء ونجاح تلميذته بنت الشاطئ، وقدمت جديداً في الدلالة المعجمية القرآنية الخاصة لعديد من الألفاظ[2]، وسار على النهج

---

(١) راجع منهج الزمخشرى في تفسير القرآن - د/ الجويني ٢٣٤ والبلاغة تطور وتاريخ ٢٤٣.

(٢) راجع كتابيها الإعجاز البيانى - والتفسير البيانى للقرآن.

ذاته قليل من المؤلفين فى الدلالات القرآنيـة، وإذا طبقنا هذا المنهج على الألوان البيانية وسائر ضروب البلاغة بفروعها في القرآن الكريم- وهو ما تنبه إليه بعض الباحثين - فأعتقد أن جيلنا يمكن أن يقدم مفاهيم حية وأسراراً طيبة في الأسلوب وطريقة الاستعمال القرآنى؛ أساساً طيباً للإضافة والإفاضة. على أن المناهج مهما تنوعت بحثاً في الكشف عن الجمال القرآنى فهى تتفق ولا تختلف، وتلتقى وتأتلف، ولا تتضارب أو تتنافر، ولها أثر جليل فى ميدان البلاغة والنقد الأدبى الذى تتخبطه النظريات الغربية من الرمزية إلى السريالية إلى البنيوية بعيداً عن واقعنا الأدبى المشتت.

الحقيقة الخامسة :

أن المنهج الأمثل عندى ان تستقصى آيات القرآن فى اللون البيانى مثلاً مع الاستعانة بمعجم ألفاظ للقرآن، ثم نتعرف على طريقة الاستعمال حقيقةً أو مجازاً بجمع النظائر والأشباه وإحصاء أوجه الخلاف وتلمس أسبابها النفسية والذوقية والذكاء في اكتشاف العلاقات والتجارب الصحيحة مع الإيحاءات المشعة من التراكيب والمناسبة للأغراض مع الانضباط العلمى والالتزام بالمنهج فى حزم، مع العناية بأثر السياق الخاص والعام، وتنوع الصياغة وأثر اللفظ فى تشكيل العبارة، ولكن يبدو أن هذا الأسلوب في التطبيق سيظل شخصياً يتفاوت فيه الباحثون، وهو خير بل دليل علي الإعجاز القرآنى الذى لا يحيط به منهج مهما دق أو وسع. وكم كنت أتمنى للمجمع اللغوى وقد وضع معجماً للألفاظ القرآنية أن يستلهم الراغب فى مفرداته أو الزمخشرى في أساس البلاغة فيذكر نصاً للدلالة الحقيقة ثم الدلالة التشبيهية أو المجازية أو الكنائية للفظ القرآني، ولو قد فعل لقدم خيراً يحمد عليه.

سادساً: أن ما وضع من مقاييس بلاغية انتهت إليها الدراسات البلاغية استلهم معظمها لسوء الحظ من الأدب العربى ومن التقسيم العقلى لا من القرآن أو علومه أو تفاسيره؛ ولذلك تجدها أحياناً عند التطبيق ضيقةً كسيحةً متخاذلةً، وحاول مثلاً تطبيق فكرة التشبيه البليغ محذوف الأداة، أو ترتيب الأبلغية على ذكر الأداة في التشبيه وحذفها، أو ذكر المشبه أو حذفه، وقربه أو بعده، وقضية التشريح والتجريد فى التشبيه والاستعارة، وغير ذلك عديد، فستجد القواعد تتمزق كل ممزق، كأنها ثياب أطفال تحاول أن تلبسها عمالیق شداد. وننبه أيضاً إلى أن التصوير فى القرآن أوسع وأرحب كثيراً من البيان البلاغى؛ ذلك أن الأخير يمثل نصيباً قليلاً من حجم القرآن، وقد نقرأ سورة من الطوال أو القصار فلا نعثر إلا على عدد ضئيل من التشبيهات أو المجازات أو الكنايات، ومع ذلك تجد التصوير الحى والجمال الساحر فى كل آية؛ ذلك أن جوانب التصوير تتمثل فى الأجراس والأصوات الخارجية أو القشرة السطحية كما عبر الدكتور دراز رحمه الله[1]، أو الجرس والصوت والنغمة وتنوعها الغريب مع تآلفها الشديد وتصويرها بايحاء ممتد للأغراض والمعانى، ثم الإيقاعات الداخلية للتراكيب مع التلاؤم بين الألفاظ المعبرة المشعة شعورياً وتصويرها لحديد المعانى، ثم التناسب بين الحروف والألفاظ والتراكيب والآيات والسور في خيط ممدود قويم مع تجسيد الانفعالات والمعانى الذهنية، ورسم النماذج البشرية بدقة، وإحياء المشاهد الماضية والمستقبلة فى نبض يفوق الرسم والتصوير للحركة والدفء والإيحاء، ثم تنوع الأداء من أمر إلى استفهام إلى

---

(١) راجع : النبأ العظيم ٩٦ ومابعدها.

تعجب إلى حوار أو تقرير، ثم الرسم بالطباق والتقابل فى معناه الأوسع بين الأزمان والصفات والذوات والمعانى والشخوص.[١] معنى هذا أن القرآن يرسم باللفظ المجرد صوراً ومناظر ومشاهد، كما يرسم ذلك أيضاً بالبيان البلاغى المعهود فى القرآن ما جاء بالاستعارة كما يقول الرافعى؛ لأنها استعارة أو المجاز لأنه مجاز إنما أريد به وضع معجز فى نسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجوه السياستين من البيان والمنطق فى أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية العربية[٢]، كأن بلاغتنا التقليدية جزء من بلاغة القرآن التصويرية، فهل يأتى يوم توضع فيه بلاغتنا وضعاً جديداً يسموا إلي آفاق القرآن العالية؟ بمعنى أن تعمق وتوسع نظرية النظم العربية لتكون على مستوى يثرى البحث البلاغى والنقدى ويكتشف جديداً فى الدرس البيانى للقرآن الكريم.

ومهما يكن من أمر فهذه محاولة نحاول تأصيلها فى الدرس الجامعى؛ ربطاً لأجيالنا بكتاب العربية الأكبر؛ استشراقاً لآفاقه، ونهلاً من نبعه، وتقويماً لمبادئ النقد ومقاييس البلاغة، وصنعاً لجيل جديد : «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»[٣].

---

(١) راجع : التصوير الفنى ٦٢ ومشاهد القيامة ٤١ للشهيد سيد قطب وإعجاز الرافعى ٢٤١ ومابعدها ٢٤٩، ٢٦٨، ٢٨٣.....

(٢) راجع إعجاز القرآن للرافعى ٢٩١-٢٩٣.

(٣) كتب هذا البحث ١٩٧٧م وكان له بحمد الله أثر طيب، فقدمت بحوث تتناول قضايا البلاغة فى القرآن الكريم لا تبعد عن منهجنا ولله الحمد والمنة.

مظاهر القهر فى الدنيا

قال تعالى :-

«وهى تجرى بهم في موج كالجبال»، «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله»، «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظله»، «وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم».

وقد خرجت الأمواج عن طبيعتها في الطوفان فصارت في ضخامتها وارتفاعها وهولها كالجبال، كل موجة كالجبل، فالطرفان محسوسان والوجه كذلك، والكاف وضحت التقارب بين الطرفين، والموج في الآية التالية مشبه بالظلل؛ جمع ظلة، وهى ما أظل من سقف أو جبل او سحاب، فى الارتفاع والتراكب والإحاطة، فقد خرج المشبه عن طبيعته، وقارب المشبه به وهو الأصل فى الصفة؛ تصويراً للهول والعلو والضخامة، وفي آية بنى إسرائيل انقلع الجبل من أصله وارتفع وأظل بنى إسرائيل في تهديد رعيب مدمر؛ دلالة على القدرة المقتدرة، فهو ظلة وهو السحاب والغمام ومنه : (عذاب يوم الظلة) وهو مدلول آخر من المدلول العربى للفظ، ولما كان هناك بعد في العقل بين الجبل وهو مثل الرسوخ والظلة، وهى مثل الحركة والانتقال، أكد التشبيه بكأن بنا للوحدة في المتباعدين، ومثل: «كل فرق كالطود العظيم» والفرق الجزء المتفرق من البحر فى ارتفاعه وعظمه وعلوه كالجبل المنطاد في السماء، ويلفت الخاطر هذه العلاقة التشبيهية الحميمة بين الماء والجبال على بعد ما بينهما، أحدهما من وادى الحياة والرجراج والحركة والسيولة، والثانى من عالم الشموخ

والثبات والصلابة والموت، وسيلقاك هذه التشبيهات: «ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام» «وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام» وهى تمرمر السحاب. «ترى الجلالة والدقة والإبداع الرابط بين أكبر مظهرين من دنيا الماء ودنيا الصحراء. على أن الدقة فى اختيار الأعلام» مشبهاً للسفن لا الجبال على إطلاقها، إذ العلم : الجبل المرتفع المستطيل، فالشكل بجانب الضخامة مقصود فى الصورة بالإضافة إلي ما فى لفظ العلم وهو الجبل المعلم، من أنس به وراحة لرؤيته وطمأنينة لقربه من الديار، وكذا الأنس والأمن فى هذه السفن الكبيرة التى تسير بقدر الله ورحمته.

وقال تعالى :

فى أصحاب الفيل «فجعلهم كعصف مأكول»، **وفى عاد:** «وأما عادٍ فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية».

«إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر»، «ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم». **وفى ثمود:** «إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة كانوا كهشيم المحتظر»، «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء».

وقال عن المكذبين : «فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين» وهذه آيات تشخص العذاب المرعب، فتقشعر الأبدان؛ ذلك أن الانتقام الإلهى والقهر النازل لا تستطيع كلمات اللغة أن توضح كنهه وأثره إلا ما وضح القرآن، **فأصحاب الفيل**

أصبحوا أثراً بعد عين، فشخص ذلك بالعصف المأكول. وعصف الزرع: **حطام التبن ودقاقه**، لم يكتف بجعله عصفاً حتى جعله مأكولاً أكلته الدواب وراثته إفادةً لتمام الهلاك، أو **ورق الزرع** وقع فيه الأكّال وهو الدود، فلم يبق منه باقيةً، او كورق الزرع أكلته البهائم، والبلاغة هنا فى اجتلاب التشبيه مما يقع تحت الباصرة دوماً في حياة الرعى والزرع، ولكن لا يقع فى الوهم حين خطور المشبه إلى الذهن إيماءً إلى تفاهة هؤلاء وحقارة شأنهم مع قوة العذاب المبيد.

وأما عاد فانظر ما وفر الأسلوب للريح من قوة وأثر جعل القوم صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهى أصول نخل جوفاء فارغة خفيفة القلع والرمى مبعثرة فى إهمال أو أعجاز نخل منقعر» مقلوع من مغارسه، والصورة تقتصر على إعجاز للنخل؛ لأنه دائماً ملقى مهمل لا خير فيه، وكلمة «خاوية» و«منقعر» تكمل صورة الاستئصال والهلاك بل إن الدمار لم يقتصر على البشر، إن الريح «لا تذر من شئ» بهذا العموم «أتت عليه إلا جعلته» في تدميره وعدوم غنائه «كالرميم» ما رم وبلى وتفتت من عظم أو نبات تشخيصاً مخيفاً لعذاب أمن منه المحسنيون. وتقدر أبو السعود: «ما تذر من شئ قابل للهلاك» ليتواءم مع قوله تعالى «فأصبحوا الا يرى إلا مساكنهم».

وأما ثمود: «فكانوا كشهيم المحتظر»: كالشجر البالى المتهشم والقصب والسعف الذى تقادم عليه العهد فوطئته الدواب وصار حطاماً هشيماً، وهو صورة غريبة للإزراء والإهمال مع الدمار الشامل.

والغثناء ما بلى واسود من عيدان وورق من حميل السيل، وقد صور المعذبين به مرةً وبالحصيد مرةً أخرى دلالة الإفناء والتدمير الشامل، ونرى هنا أن التشبيه انتزع للمعذبين من التافه الضائع الذى لا يؤبه به من الأشياء، وهى وإن تفاوتت ضآلةً وضخامةً وتلاؤماً بين الطرفين تلتقى عند الإهمال والتفاهة، ومن هذه الأمور المهملة جاء القرآن بتشبيهاته في العذاب فجعلها لا تنتهى إثارةً وفناً وإيحاءً وترهيباً من الكفر والعصيان.

(ب) وقال تعالى :

- «فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً».
- «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود».
- «أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله».

ومعجزة الله لا تتوقف عند النواميس والعقول :

فعصا موسى تنقلت كما جاء فى آيات أخرى حيةً تسعى، والجان : ضرب من الحيات، وجاءت في مقام خاص هو تدريب موسى على رؤيتها وانقلابها حتى يأنس إليها؛ ولذا كانت ساناً، بمعنى حية تكثر فى البيوت لا تؤذى[1]، بهذا التخصيص، وتولى موسى عليه السلام لهذا الانقلاب من الجماد إلى الحياة المهتزة في صورة حية، ثم كان التعبير بحية تسعى أمام السحرة؛ لأنها أخذت شكلاً مهولاً مفزعاً يلقف ما يأفكون، ولا عبرة ولا التفات بمن جعل الجان هنا وهمياً من الجن توهماً وخبطاً دون تثبت.

---

(١) القاموس المحيط ٤/٢١٢.

وأهل الكهف يناموون مفتحة عيونهم، فمن يراهم يحسبهم أيقاظاً، فهو تشبيه بليغ «ويحسب» إن أريد بها التشبيه فى القرآن جاءت لما بين طرفين من تقارب شديد كقوله تعالى فى غلمان الجنة : «إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً».

وفى آية عيسى عليه السلام شبه ما يسويه من الطين بهيئة الطير، وهى تشبيهات يكاد يتحد فيها الطرفان لقوة الإعجاز وبلوغ المشبه درجة المشبه به وهو الأصل.

أحداث القيامة :

قال تعالى :

- «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان».
- «يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن».
- «يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب».
- «وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً».
- «وترى الجبال تحسبها جامدةً وهى تمر مر السحاب».
- «وسيرت الجبال فكانت سراباً»، «وكانت الجبال كثيباً مهيلاً».
- «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنقوش».
- «خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر».
- «يوم يخرجون من الأجداث سرعاً كأنهم إلي نصب يوفضون».
- «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر».
- «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب».
- «وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً».

وأحداث القيامة يقدمها القرآن مصورة محسوسة حيةً متحركةً بارزةً شاخصةً في عالم كامل حافل بالمشاهد ملئ بعشرات الأوضاع والأشكال والسمات تؤلف ملاحم فنيةً آسرةً تتملاها النفس والخيال، ويتعقلها العقل، ويستغرق فيها الحس، وتتواثب منها الظلال، إنها سمة عامة في مشاهد القيامة ان تفرع من عالم الاحياء لا اكوان مجردة ولا حظوظ جامدة، إنها مشاهد تقاس فيها الأبعاد، كما يقول الشهيد سيد قطب، بالخواطر والخلجات[1].

والتشبيه يدلى بدلوه فالسماء بعد الانشقاق والانفطار تتقلب عن طبيعتها فهى **وردة حمراء تسيل كالدهان** لوناً وسيولةً وهى حمراء داكنةً غبراء كدهن الزيت مع السيولة، والدهان : ما يدهن به أو جمع دهن، أو الأديم الأحمر كما يرى الزمخشرى، لكن يرجح الأولى هذه السيولة العنيفة من جسم ضخم كالسماء، **وهى أيضاً كالمهل:** كدردى الزيت الكدر، أو ذائب النحاس لوناً وسيولةً، وتصور هذا في جانب السماء أمر يكاد لا يطيقه عقل.

والسماء على ضخامتها تطوى **«كطى السجل للكتب»** أو السجل الصحيفة كما يطوى الطومار، ليكتب فيه اقتداراً وتحكماً، إيماءً إلى أنها مقدورات كقادر جبار مقتدر، والتشبيه هنا داخل تحت التمثيل أو الكتابة؛ وذلك فى كل ما يضاف إلى رب العزة من صفات الحوادث إخراجاً لما لا يحيط به بشر مخرج المحسوس تصويراً وتبليغاً.

---

(١) انظر مشاهد القيامة ٣٧ ومابعدها.

والجبال على عظمها تخرج عن طبعها وصلابتها وتماسكها وتسخر بيد القدرة دلالة الهول الرعيب فهى كثيب مهيل لا يتماسك، وهى عهن منفوش في الهشاشة واختلاف الصبغ أو اللون لأنها «جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود» فإذا بست وطيرت فى الجو أشبهت الصوف المنفوش إذا طيرته الريح[1]، والتشبيه هنا مركب خيالى ثم هي تسير كالسحاب فى تمهل وتريث، وهى أيضاً تختلط وتلت وتختلط كالسويق الملتوت وهو العجين فتتداخل اجزاؤها ثم تصير بعد انعدام الجاذبية كالسحاب بطيئاً ثم تتفوق أجزاؤها فتكون كالهباء منبثاً في التفرق والتلاشى، ثم يحقق هذا التلاشى فتكون سراباً، وهو المناسب لقوله تعالى «وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً» كالأرض البيضاء الملساء التى لا ثبات فيها بعد أن كانت معشبةً خضراء فى إزالة البهجة وإبطال الزينة وتغيير الصورة فالجبال وقت القيامة تمر بهذه المراحل المتتابعة حتى تصير كما عبرت الآية «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً» تصير رملاً ثم يرسل عليها الريح فيذريها كما يذرى الطعام فيسوى مكانها فلا عموم فيها ولا نتوء[2].

أما البشر فقد صور خروجهم بغتةً في حشد كثير وذلة وضعف واختلاط وتطاير إلي الداعى من كل جانب بالفراش المبثوث المجذوب إلى النار وهو انجذاب لا مفر منه كالطبع والفطرة، فالوجه

---

(١) راجع الكشاف ٤/ ٥٥٠، ٢/٦٩.

(٢) المرجع ٤/٣٤٤.

هينة لا تجد ظلالها ، والعجيب من انتزاع الصورة من هذا الفراش الهائم المشدود إلى نيران وقادة، والناس في كثرتهم واضطرابهم واختلاط أمرهم كالجراد المنتشر، وهو مثل فى الكثرة، وانتشاره يعطى هذه الكثرة اتساعاً ومساحةً وقد دلت الكناية «خشعاً أبصارهم» على الذلة والمهانة تصويراً حسياً مؤثراً. هم فى الاضطراب والإسراع إلى الداعى كصورتهم هم (وهو تشبيه خاص لا عام) وهم يستبقون إلي أصنامهم[1]، والصورة ساخرة متهكمة فالتجمع والإسراع محققان في الطرفين، لكن الذل واضح في المشبه وفي الكتابة بعده، وهو على النمط الساخر في قوله تعالى «بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل «فقد سمى أعشاب الصحراء الشائكة جنتين تهكماً وتحقيراً واقتداراً.

والساعة وهى أمر لا يدرك كنهه تأتى سريعةً كالأمر (كن) فهى في سرعتها الخارقة كلمح البصر؛ تصويراً للمعقول الغيبى بالمحسوس المرئى الذي يضرب به المثل في السرعة بل هى أقرب، وأجاز الكشاف[2] أن يكون قربها عند الله كلمح البصر عند البشر إذا بالغوا فى قرب الشئ ونحوه :«وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون» وهى دلالة تشاء الله للمتعلم أن يقترب منها ذلك أن الأيام على الكواكب تطول وتقصر حسب قربها وبعدها وسرعتها وبطئها فى دوراتها حول الشمس فيوم المريخ يزيد على عشرات المرات من يوم الأرض، ويوم الله لا يعلمه إلا هو، والعدد هنا تقريب لا تحقيق؛ ولذا جاء على الصيغة العددية «ألف» التى يراد بها الكثرة لا التحقيق.

---

(١) المرجع ٤/٤٩٢.

(٢) المرجع ٢/٤٨٢.

نعيم الجنـــة :

قدم التشبيه لمحات دالة لها أثرها البهيج من شغل الحواس ومنافذها والملكات النفسية لدى الإنسان وترغيباً وإثارةً للأشواق لهذه الدار التى يدندن حولها المتقون قال تعالى :

- «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون»، «وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون» «كأنهن الياقوت والمرجان».
- «ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا».
- «يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون».

ونلحظ أن التشبيه حسى صورت فيه الحور العين مع أنهن قاصرات العين، تقابلاً عجيباً، باللؤلؤ المكنون فى صفاء بياضه وبراعة جماله وغلوه وصونه، وبالياقوت والمرجان في صفائه وملاسته وقيمته وصيانته، وبيض النعام مكنوناً فى «الأدحى» وهو عش البيض قد اشتد بياضة وحوفظ عليه، وبيض النعام يشبه به العرب نساؤهم كقول امرئ القيس «وبيضة خدر لا يرام خباؤها» وقد فرعهم الأسلوب القرآنى جمالاً فأخرج التشبيه من الابتذال بالوصف «مكنون» وأنت تلاحظ أن تشبيهات القرآن للمرأة من مثل قوله تعالى: «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» تحرص على توفير جو الصيانة والستر؛ ولذا أعان الاسلوب على رسم صورة للحور، فهن قاصرات الطرف أبكار- لم يرهن إنس ولا جان - وهن واسعات العيون فى جمال - وقد بلغن من الجمال مبلغا يستأثر بالألباب كهذه الجواهر الغالية، نيلت بعد عناء، وكلها فتنة وسحر مع الحفز والصيانة

ودعوة إلى الستر حتى في الآخرة فالحسيات هنا لها أثرها المعنوى والأدبى والعقلى فى التكريم.

وانظر إلى الأطفال والغلمان فهم حين كانوا (لهم) أى لخدمتهم خاصة جعلهم لؤلؤاً مكنوناً فيه جمال وصبيانة؛ لأن اللؤلؤ رطباً أحسن وأصفى، أو مخزون لأنه ثمين، وحين لم ينص على أنهم لأصحاب الجنة جعلهم لؤلؤاً منثوراً في غير نظام، وفى هذا اتباع الحاسة الفنية، فهنا بهاء وصفاء وانبثاث فى المجالس، لآلئ متحركة رائحة غادية، وأنت تلحظ هنا التناسق بلا مغالاة ولا تناقض بين اللون والحركة والحياة والظلال المرحة.

وتلحظ أن الكاف دخلت علي «أمثال» مشبهاً به بمعنى هيئات فقوت جانب التشبيه وألحقته بكأن، وجاءت «حسب» في الأطفال تناسباً فى جزاء الأبرار الذى فصلته سورة «الإنسان» وهم سيدنا على والسيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، وذلك يقوى جزاء المتقين أو الخائفين أو الذين آمنوا في باقى الأساليب، وانظر التلاؤم التام فى القرآن :

قال فى الزوجات «هن لباب لكم وأنتم لباس لهن» وقال في الليل : «وجعلنا الليل لباساً تركيزاً على جانب الستر والصيانة؛ ولذا لم يقل وانتم كذلك؛ تفويتاً لهذا الجانب وجعله خاصاً بالأزواج (الكم- لهن) وأطلق فى الليل؛ لأنه يستر الكون والأشياء، ثم انظر كيف يربط الصيانة بالنساء، وكيف يرتبط الهدوء والسكن والستر في الأذهان بالليل الذى جعله لباساً. وهو لباس محقق على طريقة التشبيه البليغ القريب الطرفين، أما الجنة مكان النعيم فقد صورها

في السعة بالسماء والأرض ونص على العرض؛ لأنه أو فى الطول ومبالغةً كقوله «بطائنها من إستبرق» فما بالك بظواهرها، دلالةً على سعة لا يدرك كنهها فهي أوسع حتى مما علمه الناس من الخلق، الكناية عن السعة تفرعت عن تشبيه محسوس.

مشاهد العذاب:

قال سبحانه :

- «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم».
- «إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين».
- «لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين».
- «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه».
- «إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً».
- «إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر».
- «فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم».
- «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس».

وكل ما فى الآخرة غيب مكنون له قوانينه الخاصة ولا نعلم منه إلا الأسماء، وما قدمه القرآن من صور مثيرة على طريق تداعى الفكر سيلاً من المعانى والصور فهذه الشجرة الملعونة في القرآن، والتى

كانت فتنةً للظالمين عالجها القرآن من ناحية طعمها وشكلها أثرها، **فما يطعم منها أو ما يسيل من ثمرها كالمهل** وهو دردى الزيت أو ذائب الفضة والنحاس[1].

ومن يطيقه وهى يغلى في البطون، وكيف تتحمله البطون بليونتها وبشربتها، والغلى يبلغ حد الفوران كغلى الحميم؟ وكأن البطون أصبحت قدوراً، ونسأل الله النجاة، والصورة اشتملت على تشبيهين حسيين صعداً المعنى وهو التعذيب، فلم يكتف بأن جعل طعمها كالمهل حتى جعله يغلى وحقق غليانه المضطرم فجعله كغلى الماء الحار في الداخل جيشاناً وتوقداً، ونعوذ بالله.

والصورة اشتملت على الحركة واللون والحرارة والتوقد والإثارة، والكاف قربت الطرفين، بل ربما كان المشبه فى العذاب أرقى من المشبه به المعلوم لدينا، **والآية التالية** تبدز بدايةً غريبةً فالشجرة تخرج وسط الجحيم، وبالله كيف تجامع الخضرة والنماء جحيماً وقودها الناس والحجارة وكيف يتآلف الضدان؟ ثم إن ثمرها مثلها شاذ على الحس البشرى، فهو أقرب إلى رءوس الشياطين، والطلع من النخل مستعار لثمار الشجر، والوهم يجسد هذا المعنى ولا يكاد، وحركة التصوير ترسم الشناعة والقبح لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع البشر لاعتقادهم انه شر محض، ورأس الشيطان وفيه وجهه جماع القبح كله، كما أن الطباع تتوهم في الملاك الخير والجمال قال الله تعالي على لسان النسوة في سيدنا يوسف «ما هذا بشراً إن هذا إلا

---

(١) الكشاف ٤/٢٢٢.

ملك كريم وما ركز فى الطباع صورة من الواقع والحقيقة[1]، وهذا الوهمى الذى أدخله الزمخشرى تحت التشبيه التخييلى متوهم عند البشر حقيقة في القرآن لا يعلمه إلا الله، والسورة تقدم وجبةً كاملة من شجر الزقوم، فى ذلك ثمر وأكل وشحمة بملء البطون وشرب من الحميم ولكنه شرب لا ينتهى تمديداً في العذاب كشرب الهيم» والهيم الإبل المريضة بالهيام، وهو مرض يصيب الإبل تشرب فلا تروى، جمع أهيم وهيماء، وأجاز الزمخشرى أن يكون الهيم» الرمال[2]، والأول أنسب إيماءً إلى التشبيه بالأنعام فى الكثرة وطول شربها والحيوانية، ثم ألست معى أن في إطلاق اسم الطعام والشراب على العذاب، ثم تسميته» نزلاً، وهو قرى الضيف فيه تهكم ساخر وترهيب واستهزاء، وكذا إطلاق الماء على المهل يشوى الوجوه وتسميته إغاثةً فيه هذا التهكم، والآية القرآنية :«انطلقوا إلى ظلٍّ ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر».

يقول الشهيد سيد قطب :«انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون» فهذا هو أمامكم تشهدونه، وتلك طريقة القرآن في استحضار اليوم الآخر، كأنه اليوم الحاضر- «انطلقوا إلي ظل ذى ثلاث شعب»- إنه ظل لدخان جهنم لا ظليل ولا يغنى من اللهب» إنما هو ظل خانق لا ظل فيه، وإنما تسميته بالظل هنا امتداد للتهكم في قوله «انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون فانطلقوا» (إنها) : وانكم لتعرفونها فلا حاجة إلي ذكر اسمها (إنها ترمى بشرر» كأنه الشجر الغليظ

---

(١) الكشاف ٣٦٣/٢.

(٢) المرجع ٣٦٩/٤.

فياللهول: الشرارة قصرة فما بال الموقدة كلها، إنه تهويل بالضخامة حقاً وصدقاً وواقعاً أخروياً، وقد أتبع التشبيه الأول بتشبيه آخر يؤكد الفخامة أيضاً كأنها جمالة صفر، أى جمال صفر، كل شرارة كأنها جمل أصفر والشر والمتطاير كأنه جمال منتشرة[١].

والطرفان مفرد ان حسيان والوجه كذلك، والأداة الكاف، وليس المقصود المبالغة، وإنما الصدق والمقاربة والتأثير وبيان واقع المشبه، وهو واقع يتمرد على متعارف البشر؛ ومن هنا كان التأثير والترهيب، وقد اتبع التشبيه تشبيه آخر يوضح الحجم واللون والكثرة والتحرك، فهو جمالات عديدة صفر تتحرك في نواح عدة، وقد تتفق الإبل لوناً أو تختلف، ولكن الشرط لتحقيق الشبه أن تكون صفراً، وانظر كيف يتحول الشئ إلى ضده فالشجرة أصبحت خشباً يابساً الشرر فى ضخامته، والجمال مصدر النعم ينتقل إلى عالم النار تشبيهاً غريباً نادراً بعيد الطرفين جامعاً بين الطول والعظم والصفرة والحركة، وقد تأثر المعرى هذا التشبيه في قوله[٢]:

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى
ترمى بكل شرارة كطراف

والطرف بيت الأدم في العظم والحمرة، فلم يستطيع أن يثبت إلا العظم والطول، وما كان لبشر ان يلم بالأطراف ويجمع المتباعدات ويثير المعانى كالقرآن الكريم، والغريب أنه ما قلد القرآن أحد إلا قصر

---

(١) المشاهد ٧٣.

(٢) راجع الكشاف ٥٤٤/٤.

وضؤل، والتمثيل فى الآية الكريمة «فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم» والذنوب : الدول العظيم أصله فى السقاة يقسمون الماء فيكون لهذا دلو ولهذا ذنوب أي نصيب، فقد جسم العذاب وجسد، وجعله متوالياً بالعدل بين كفار مكه وكفار الأمم السابقة، والتشبيه والاستعارة قدمت الصورة حيةً مجسدةً مؤثرةً».

وأما الذين يأكلون الربا فقد صورهم على طريق القصر حين يبعثون من قبورهم متخبطين كما يتخبط المصروع من مس الشيطان قال الزمخشرى على زعم العرب[1]، ولا زعم بل حق مشاهد، ولعل المصاب بداء الهرع وتلف الأعصاب كان العرب ينسبونها إلى مس الشيطان، والواقع القرآنى يؤيده، وإن كنا لا ندرك إلا آثره، والمقصود المقاربة لهذا المس من تخبطوا واضطراب وتشنج وأخذ وانقلاب يضيع فيها العقل ويتأذى منه الجسم، والصورة بعضها وهمى حسى، وبعضها حسى، والحركة غالبة عليها وهى صورة ترى فى كل زمان ومكان، ولها وقعها فى النفس.

وانظر الصورة الغريبة فى الآية الكريمة من المعذبين يوم القيامة «وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً».

فقد جعل من الظلمات قطعاً مجسدة من الظلام، وجعل وجوههم مغطاةً بها؛ إخراجاً للذلة والغبرة وأثرها فى الوجه مخرجاً حسياً تخييلياً غريباً على سبيل التمثيل.

---

(١) المرجع ١/٥٠٢٧.

مظاهر الطبيعة في التشبيه القرآني :

قال تعالى :

- «ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً، وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً.... وجعلنا سراجاً وهاجاً».
- «والله جعل لكم الأرض بساطاً».
- «وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً».
- «الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً»، «وجعل الشمس سراجاً».
- «والذى أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى».
- «ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام».
- «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام».
- «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر».

وترى فى هذه الظاهر كيف هيأها الله بقدرته وحكمته وما يفيده الفعل «جعل» مسنداً إليه ضمير العظمة، فالأرض مهاد وبساط وفراش والطرفان مفردان محسوسان، ويجوز أن يكون من تشبيه الهيئة : هيئة الأرض ممهدةً يتقلب عليها الناس وينامون بهيئة الصبى على مهده أو الرجل في مهاده وبساطه وفراشه وهو الواضح من تحليل الكشاف[1]، وكذا الجبال تمسك الأرض كما يشد البيت الشعر بالأوتاد. والسراة لأهله يستضئون به ثم أخرج السراج مخرج

---

(١) ٤/٥٤٣.

الاستعارة في الآية «وجعلنا سراجاً وهاجاً» للإفادة وحسن الاعتماد، أما جعل الليل لباساً في الستر والنفع، والنوم موتاً في عدم الأثر، والنهار بعثاً كتابة عن اليقظة والحركة فهو تشبيه مفرد حسي والوجه عقلي، نلحظ لمهيمنة في التسخير والاعتبار، كما نلحظ التزام حذف الأداة والوجه؛ تحققاً في الطرفين؛ لأنها آية الليل ولا تتخلف، كما نجد التزام الفعل (جعل) مسنداً إلى ضمير الجلالة، مع الجمع بين النوم والموت وهما متقاربان مظهران مختلفان واقعاً، وجعل اليقظة بعثاً إيماء إلى أن النشاط والحركة دليل الحياة وأن النوم بألوانه علامة الموت، **وآية الفجر** «فيها إيجاز بالحذف يعنى الخيط الأبيض من الخيط الأسود من سواد الليل والفجر مشبهاً سواد الليل بالخيط الأسود وبياض الفجر بالخيط الأبيض فحذف المشبه فى جانب الليل اكتفاءً بما يقابله ودلالة السياق عليه مع تقديم المشبه به ففى الآية تشبيهان وطباق ومراعاة نظير وكناية خفية تحتاج الدقة في الفهم والعمق في الفكر، وانظر الآية :«**والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**» يلفت الذهن إلى تتبع القمر فى منازله ومراحله فى رحلة خالدة، وقوله «حتى عاد» تعبير قرآنى يختصر مراحل جمة لا يغفلها الخيال والعقل عاد يهئ لتشبيه دقيق غريب نافذ، إنه كالعرجون القديم وهو العذق ما بين شماريخه إلي منبتة[1]، وإذا قدم دق وانحنى واصفر وأخذ هذه الهيئة الخاصة، والطرفان بعيدان، والمشبه به يهز الخيال بما له من وقع شعورى مع الإيماء إلى ضآلة القمر وضياعة فى صحة السماء العريضة دليل قدرة خارقة، وقد أراد ابن الرومى أن يدخل التشبيه في حسن تعليل فقال :

---

(١) المرجع ١٣/٤.

تأتى على القمر السارى نوائبه
حتى يرى ناحلاً في شخص عرجون[1]

وقد أخطأه التوفيق؛ لأن العرجون لا يكون على هيئة القمر دقة وانحناءً وصفرةً إلا إذا تقدم وفى القدم لفتة إلى ضآلته.

والسفن فى البحار كالأعلام والإثارة لا تنتهى من جمع بين متحرك على رجراج مهول وبين جبال مهيبة من عالم الصحراء وهى مستطيلة تحقيقاً للشكل والضخامة؛ وبهذا التأليف بين متناقضين كانت الغرابة والجمال.

التوغيب فى بعض الفضائل :

- «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار».
- «ولباس التقوى ذلك خير»، «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى».
- «إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص».

والكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وقيل : كل كلمة معروف، وقد أخرج الكلمة المعنوية وأثرها الذى طواه فجسده بشجرة مثمرة نافعة مبهجة النظر ثابتة راسخة سامقة إلى السماء، شجرة لها ألوانها

---

(١) الصناعتين ٢٥٢.

وطولها وثمرتها ونماؤها وظلالها، أحاط بها التشبيه من كل ناحية ترشيحاً للتشبيه وترغيباً في الكلمة الطيبة وتأكيداً لأثرها.

والتصوير قواه تصوير مضاد للكلمة الخبيثة فى شجرة شائهة خبيثة بهذا اللفظ الاستعارى الموحى «اجتثت» بهذا اللفظ الموحى بالعنف والكره من فوق الأرض»- فهى لا جذور لها ولا أساس - «مالها من قرار»- تأكيد لضعف المنبت، والتمثيل يوحى بشجرة صحراوية شائكة شائهة في الخبث والأذى والضعف والتهاوى والزوال؛ تجسيداً معجزاً ترهيباً وتحذيراً.

أما التقوى فقد ظهرت فى معرضين على طريقة التشبيه البليغ بإضافة المشبه به إلى المشبه إضافة محسوس إلي معقول، والتقوى وهى فلسفة الإسلام ولبة؛ ولذا صورها على ضرب من الإدماج والتقريب باللباس والوقاية والحماية والتسترّ بالزاد فى حفظ النفس وإبقاء الحياة والطمأنينة وهما من عمد الحياة مع تصوير الاستمرار، إذ اللباس والزاد باقيان ما بقيت الحياة.

أما وحدة الصف والدقة في اختيار البنيان رمزاً لمعانى شتى فقد سبق ولا يخفى[1].

التشبيه فى النواهى :

قال الله تعالى :

- «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس بعيداً».

---

(١) وراجع الكشاف ٤/٤١٨ والتعبير الفنى ١٩٣ د/ بكرى أمين.

- «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه».
- «واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير».
- «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً».
- «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة».

والتشبيه في القتل يحمل من التبشيع والتفظيع مابه يجعل قتل نفس واحد كفناء البشرية كلها، وهذا شئ لا يتحمله عقل؛ ذلك أن إزهاق الروح وتحطيم الهيكل البشرى تعد على حق الخالق المحى المميت وإهانة لما كرم الله وجسارة على سر الحياة فى الإنسان. فالواحد كالجمع بما بغى به من حرمة وكرامة على الله[1]؛ ولذا كان من أحيا نفساً أوشكت أن تموت إنقاذاً مثلاً كأنما بث الروح فى سكان هذا الكوكب.

وانه لتصوير رهيب لجانبى الشر والخير معاً له أسرار تدق حتى تخفى، والآية التالية تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب على أقبح وجه وافحشه، وفيه مبالغات شتى، منها: الاستفهام التقريرى التوبيخى المثير، ووصل غاية المكروه بالأخ المحبوب طباقاً معنوياً أو شبه طباق وإتمام التمثيل على أحسن وجه فلم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخاه، ولم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً، والاقتصار على إثبات الكراهية المستقرة في الطباعة؛ لذلك فهو اثبات هذا المعنى للمشبه أيضاً وهو

---

(١) انظر الكشاف ٤٨٧/١.

الاغتياب، وقد جاء التمثيل ضمنياً مركباً يفهم من السياق وما اشبهه بالتشبيه المرشح[1].

وفى الآية :«واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» وهو تشبيه ضمنى للصوت العالى النافر بصوت الحمير بطريق اللزوم والتأكيد المضاعف، والحمار مثل فى الذم والشتم والنفار والاستقذار، ونهاق الحمير مثل في الكراهية والبغض؛ ولذا ورد فى الحديث أن الحمار ينهق إذا رأى شيطاناً، والبراعة في هذا الجمع (الحمير) وتخييل أصواتها متآزرة في مظاهرة بغيضة تصم الآذان وترسب النفور وتحقق الغرض.

والآية : (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً)

والغرض النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها والأمر بيرها والوفاء بها، واستعمال النقض فى الأيمان استعارة، ثم جاء التشبيه على سبيل الترقى والترشيح، وجاء صورة غريبةً لا مرأة لا لرجل، ثم هى امرأة مخبولة أحكمت غزلها وأبرمته، ثم أنحت عليه نقضاً ونكثاً، والصورة الحسية يتابعها الخيال ويصل إلى مبعث النكث وهو السفه والغباء وخفة العقل، والعجب أن نسب هذا العمل لامرأة لم يذكر عملها الغريب تجهيلاً وتسفيهاً، والصورة من الواقع العربى الصحراوى، وهى أيضاً مستمرة إلى اليوم، وهذا معجز، وسواء كان المثل تخييلياً أم حقيقياً كما رأى بعض العلماء فهو واصل مداه في الترهيب من نقض أيمان البيعة[1].

---

(١) راجع الكشاف ٢/٤٩٢:

وآخر الآيات لمن يتزوج أكثر من زوجة، عليه بالعدل ما استطاع، وقد شبه من ظلمت من الزوجات ولم تنل حقها الزوجى الشرعى بالمعلقة وهى التى ليست بذات بعل ولا مطلقة وأتى «بالكاف» لتقارب الطرفين، وفيه ضرب من التوبيخ على ما اجتنابه ميسور.

يقول القرآن في جانب أمهات المؤمنين عليهن السلام :

- «يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى».

والآيات لوحة مشرقة مليئة بالحركة والصور والصوت واللون، فيها تقرير ما هو واقع ونهى عن غير واقع والمراد سواهن من النساء تعويضاً وجمالاً في الدعوة وسياسةً في الترغيب والتأثير، ونظيره فى القرآن كثير، وقد سلب التشبيه أولاً مع عقدة عقلاً (لستن كأحد من النساء) ثم نهى عن تبرج الجاهلية، والتشبية بليغ حذف منه المشبه «تبرجاً كتبرج الجاهلية» فالمشبه به مؤكد للمشبه، والتصوير يستغل المرصود فى الذاكرة والخيال عن مهازل الجاهلية تنفيراً؛ ولعل ذكر «الأولى» إيماء إلى جاهليات ثانية وثالثة ولا أدرى أين نحن الآن من هذه الجاهليات، والله أعلم.

النور فى التشبية القرآنى :

قال تعالى :

- «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة

مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم».

- «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً».
- «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا».

ولفظة نور ذكرت فى القرآن ثلاثة وأربعين مرة مراداً بها النور الحسى أو المجازى المعنوى عن الهدى والحق والمعارف والقرآن والنبى صلي الله عليه وسلم، أو على سبيل التشبيه كالآيات السالفة، فمعنى قوله وسراجاً منيراً أنه تشبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم في تجليته ظلمات الشرك واهتداء الضالين به أو تنوير البصائر بنور نبوته صلى الله عليه وسلم كما يمد السراج نور الأبصار، ووصفه بالانارة لأن من السراج مالا يضئ إذا قل سليطه ودقت فتيلته فكأن (منيراً)، وقد تطور السراج وبقيت وظيفته، واحترس القرآن بالوصف «منيراً» فهذا الوصف ثابت يفوق ما نعرف عن السرج والمصابيح.

ولعلك تلمح انه جمع له الإضاءة الممثلة فى السراج والإنارة ليكون له الكمال فى الهداية من الناحيتين جميعا صلى الله عليه وسلم، والقرآن جعله الله نوراً في الهداية وهى أمر لازم له وآية بينة لا تتبدل كما يدل الفعل (جعل)، وحذفت الأداة على طريقة القرآن فيما قرب طرفاه ثم تحقق الوصف في الطرفين على تقارب شديد.

وفى آية النور : «الله نور السموات والأرض»

جعل الزمخشرى النور مجازاً عن الحق، والأصل ذو نور، أى صاحب نور الكون، أى الحق، وأضافة إلى السموات والأرض دلالة على سعة إشراقة، أو المراد أهل السموات والأرض، ثم حقق وصفه بالصفاء والبريق وأنه نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت(١).

واستشف سيد قطب ظلال الأسلوب وآثاره النفسيه والأسلوبية، فوضح أن الكون من خلال القراءة يسبح فى نور هادئ لطيف في قدسية وجلال وجمال، وكثير من المفسرين على أن المعنى : الله منور السموات والأرض بأنوار حسية كالشمس والقمر والنجوم أو معنوية كالقرآن والملائكة، ويوضح الإمام أبو الأعلى المودودى أن المراد بالسموات والأرض في التعبير القرآنى (الكون)، وأن المفهوم الحقيقى للنور وهو ما كان ظاهراً بنفسه مظهرا لغيره، لا أنه شعاع سريع ينعكس على شبكيه العين، وكل كلمة من كلمات اللسان الانسانى تستعمل لله تعالى إنما تستعمل باعتبار مفهوم الإنسان المطلق لا مدلولها الحسى المادى، فالنور مراد به سبب الظهور وقد شبه الله نفسه المصباح والكون بالمشكاة والستر الذى دارى فيه الحق تعالى نفسه بالزجاجة وهو ستر شدة الظهور لشدة إمعانه وسعته وشموله وإحاطته فعجزت الأبصار عن إدراكه لأنها تدرك المحدود المتغير، وقد حقق النور بالحديث عن الشجرة والزيت، ثم وضح أن النور صفة كالعلم والقدرة، فهو مصاحبها ولكن قيل له النور لبيان

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠-١٩١.

كماله فيه كما يقال للكامل فى الكرم ويعنى هذا كما هو معلوم التجوز على طريقة المجاز العقلى، وهذا الأمر لا يخرج كثيراً عن آراء المفسرين وإن أجاد العرض[١]، وبعضهم يرى أنه من المتشابه، ويرى سيد قطب أن ما يتصف به المولى سبحانه من صفات الحوادث انما هو تخييل بيانى خرجت فيه المجردات مما لا يدركه الوهم في معارض حسية تناسب العقل البشرى تصويراً وتخييلاً دون تشبيه بل يترك ظلالاً عميقة في النفس البشرية وهى طريقة من طرائق التصوير الفنى فى القرآن[٢].

وهو ينحو منحى العلوى في الطراز الذى تأثر الزمخشرى فى بعض مواقفه من الآيات المتشابهة فجعله تخييلاً. وبعض المدققين يرى أن الله تعالى منور السموات والأرض، وأن نوره في قلب المؤمن وهو الإيمان والوحدانية وتوفيقه للهداية، كنور المصباح الخاص نقله ابن تيمية وابن القيم عن بعض الصحابة -رضى الله عنهم ورجحه، وبكل ما سبق لا نقول إننا استوفينا تماماً كل تشبيه في القرآن بل نعترف بأننا تركنا نشرات هنا وهناك مكتفين نظائرها كهذه الملازمة (كذلك) و(كما) وقد تكررت كثيراً فى القرآن بلفظ (مثل) رابط بين حالين أو موقفين أو حدثين أو زمانين أو مكانين وهى في الهيئات لا فى المفردات؛ ذلك أن القرآن يقرر أمراً عجيباً أو موقفاً، ثم يربطه بنظيره البعيد عنه زماناً أو مكاناً أو موقفاً كقوله تعالى في معرض آياته الكونية.

---

(١) راجع تفسيره سوره النور ١٩٩-٢٠٢.

(٢) راجع التصوير الفنى ٧٣.

- «وكذلك نصرف الآيات» ١٠٥ الأنعام.
- «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم» ١٠٨ الأنعام.
- «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة».

وقد تكررت «كذلك» عشر مرات فى الأنعام وتكررت (كما) ثلاث مرات، وتنفرد عن كل تشبيه بغرابتها وجذب الانتباه إليها وقوة مدلولها ونكتفى بالآية :

- «وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه إلي بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون» ٥٧-٥٨ الأعراف.

وانظر إلى ربط التشبيه بين أمرين غريبين وكيف نقل الآية الطبيعية لحياة النبات من رياح تحمل سحاباً ثقالاً، تساق إلى أرض ميتة تصب فيها مياهها فتخرج كل الثمرات بما يملأ القلب جلالاً وهيبةً وعجباً، يقول : مثل ذلك الإخراج أخرج الموالى ، فجعل المحسوس المرئى دليلاً على الآتي الغيبى، والآية التالية مثل ذلك التصريف وهو تنويع النبات بنوع البيئة طيباً أو خبيثاً نعرف الآيت لمن يشكر وهى الطريقة القرآنية فى الربط بين متباعدين وإخراج الخفى فى معرض الجلى وشغل منافذ الحس وطاقات الإنسان بقدر يجدد نشاطها ومتعها دون أن يرهقها أو يثقل عليها، وسبحان الله يعلم سياسات النفوس.

لقد طفت بخصائص التشبيه من خلال البحث وأدركت كيف يجعل التصوير حياً دافئاً يمر بوسط حى في تلاؤم عجيب وكيف ينتزع الصورة من الكون أو الطبيعة ثم يفصلها على نحو لا يتكرر ثم يظل حياً أبداً، ورأيت كيف كان عالم النبات معرضاً اتفق نوعا واختلف تكويناً وصياغة اختلافاً يناسب المقامات إلى ما قد يكون بينها من الاختلاف ما بين المؤمن والكافر والمنافق، بل صفوة الخلق عليه الصلاة والسلام والمؤمنون معه، ورأيت كيف تسوى الصورة من العوالم المهولة كالصواعق والرعد والبرق والريح الصرصر والسراب في الصحراء والظلمات في البحر اللجى، فأنت تتفاعل مع أكبر الكائنات وتنبهر فى قهرها على نحو غريب.

ورأيت الدقة فى تحديد الصورة وانتفاء كلماتها بما لا يغنى عنها بديل. سواء كانت التشبيهات حسية أم عقلية أو تخييليه مركبة أم وهمية اعتبارية أم دمجاً بين ذلك وسواء كانت تمثيلاً أم تشبيهاً متعدداً فإن الإيجاز فى الصورة دائما يحذف شئ والكناية عنه أو حذفه المشبه مرة واحدة، هذا الإيجاز بالإبقاء على قليل من الألفاظ يجعلها متعة كالنجوم، وقد يعين التشبيه ألوان بلاغية أخرى تقدم وضعاً جديداً معجزاً يمثل نماذج خالدة نراها دوما ويفرع جزئياتها من الكون المحيط بنا، هذه الجزئيات قد تكبر كالريح والرماد والبحر والظلمات وقد تضؤل كالفراش والجراد، وكل فى مقامه مهول يبين سطوة الجبار وقهرة أو رحمته ورضوانه، يتفق ذلك فى تشبيهات الدنيا أو الآخرة فهى حياة جائشة كاملة تنبض بها الآيات تحس بسريانها ودفئها، فهنا تصوير الحركات والسكون والألوان والأجواس والظلال بدقة غريبة وهندسة وقوانين كقوانين الحياة.

ثم قد رأيت الدلالة القرآنية الخاصة للتشبيه البليغ وأدوات التشبيه والفروق بينهما على نحو يضيف جديداً للدرس البلاغى.

كما ندم القرآن كل ألوان التشبيه مركزاً على التمثيل القصصى، ورأيناتنا سب التشبيهات جميعاً - على تفرقها - واتفاقها في معالجة شئ من كل جوانبه أو رسم ملامح خاصة وغير ذلك مما أثير خلال هذا البحث الجديد الذى يمثل بعون الله ثورةً جديدةً أرجو أن تجد منك جنةً بربوة تؤتى أكلها ضعفين، والله يوفقنا ويؤيدنا ويهدينا لخدمة قرآنه وصراطه المستقيم وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أ.د/ صباح عبيد دراز

عميد الكلية